الزّ ُهد دليل على حكمة المؤمن

الزّ ُهد من القيم الإسلامية والخلق الإنساني الرفيعة التي ورد في حقّه الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث والروايات. يقول سبحانه وتعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) (البقرة/ 207)، ويقول النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): «إذا رأيتم العبد قد أُعطي صمتاً وزُهداً في الدّ ُنيا فاقربوا منه، فإنّه يلقي الحكمة»، وقد قال تعالى: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) (البقرة/ 269)».. ويقول الإمام عليّ أمير المؤمنين (عليه السلام): «الزّ ُهد كلّه بين كلمتين من القرآن، قال سبحانه: (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) (الحديد/ 23). ومن لم يأسَ على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزّ ُهد بطرفيه» و«الزّ ُهد في الدّ ُنيا قُصر الأمل، وشُكر كلّ نِعمة، والورع عن كلّ ما حرّم الله عزّوجلّ». وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «ليس الزّ ُهد في الدّ ُنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال، بل الزّ ُهد في الدّ ُنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله».

الإسلام حثّ على الزّ ُهد في متاع الحياة الدّ ُنيا ورغّب فيه لأنّه تربية للإنسان على طريق السموّ والتكامل. فالتحذير من حبّ الدّ ُنيا ورد حتى لا يرضى بها الإنسان ويطمئنّ إليها ويؤثّرها على الموقع الأساس، على الآخرة، أو أن يغترّ بها.. فقال في ذلك: (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) (يونس/ 7). وهذا الحبّ إن كان على هذه الصورة، بحيث يتحوّل إلى اطمئنان للدُّنيا واغترار بما فيها وتنكّر لما بعدها، هو خطر على الإنسان وهو سبب شقائه ومشاكله، وهو وراء كلّ ما تعانيه البشرية، وإلى ذلك أشارت الأحاديث: «حبّ الدُّنيا أصل كلّ معصية، وأوّل كلّ ذنب»، «حبُّ الدُّنيا يُفسِدُ العقل ويُصِمُّ القلب عن سماعِ الحكمة ويوجِبُ أليمَ العقاب»، «حبُّ الدُّنيا يوجب الطمع»، «حبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة».

فالناس عندما يستغرقون في الدُّنيا تُفسِد إنسانيّتهم، ويتباغضون ويتحاسدون ويتنازعون ويتقاتلون مع مَن يبذلون الخيرات ويضحّون من أجل الآخرين، وهو ما يؤدّي إلى تدمير الحياة وتهديم

القيم فيها.. فالحياة لا ترتقي بالشهوات أو الأطماع أو بالتكالب على المال والجاه. إنّ جميع الرذائل، والتي تعانيها الحياة، كالأنانية والكذب والغش والظلم والغيبة والنميمة والفساد وسوء الأمانة والالتهاء بالتكاثر في الأموال والأولاد، هو نتاج هذا الاستغراق.

نحن نحبّ الدّنيا ونميل إليها، لكنّنا لا نستغرق فيها ولا ندعها تملكنا، بل نراها وسيلتنا إلى ا، لنستعين بها على طاعته، وعلى الخير والعمل الصالح، والتزوّد بها ليوم نحتاج فيه إلى هذا الزّاد.. وهذا ما دعا إليه هذا الحديث: «لا تسبّوا الدّنيا ولا تكرهوها، فنعم مطيّة المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشرّ»، و«الدّنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها». وورد أيضاً: «اجعلوا لأنفسكم حظّاً من الدّنيا، بإعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلم المروّة وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أُمور الدّين، فإنّه رُوي: ليس منّا مَن ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه». وقد جاء رجل إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، فقال له: وا إنّا لنطلب الدّنيا ونحبّ أن نؤتاها، فقال له الإمام (عليه السلام): «تحبّ أن تصنع بها ماذا؟». قال: أعُودُ بها على نفسي وعِيالي وأصِلُ بها وأتَصدّقُ بها وأحُجّ وأعتمِرُ. قال (عليه السلام): «ليس هذا طلبَ الدّنيا، هذا طلبُ الآخرة». إنّ هذا الفهم لموقع الدّنيا في الحياة، وللمنهج الإسلامي في التعامل معها والالتزام بذلك، سوف يجعلنا من أولئك الذين وعدهم ا فقال عنهم: (فَآتَاهُمُ ا ثَوَابَ الدّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَا يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/ 148).

الإنسان العابد الزاهد يرى حقائق الكون بمنظار يختلف عن ذلك الفرد المنغمس في حسّه المادّي، والفرق بين الاثنين لا يقتصر على إطار الرؤية، بل يتسع ليشمل التفكير والاستنتاج والتقييم والربط. يقول تعالى: (إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لآيَاتٍ لأولِي الألْبَابِ * الّذِينَ يَذْكُرُونَ ا قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ) (آل عمران/ 191-190). ويقول (صلى ا عليه وآله وسلم): «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحبّ إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلة الشيء أحبّ إليه من كثرته». ونختصر هنا الزّهد بكلمة قالها أمير المؤمنين (عليه السلام): «الزّهد تقصير الآمال وإخلاص الأعمال».